زاوية

سعدون... رحيل مبكر

يوسف أبو الفوز

لم أتعود يوما ان اتحدث عن رفاقي الشهداء بصيغة الماضي ، فهم باقون معنا ، يسيرون الى جانبنا ، ويمنحوننا الثقة بنبل افكارهم وقضاياهم ، وهكذا اجدني اتحدث هذه المرة عن شيوعي بطل ، حفر اسمه باصرار وتفان في صفحات تاريخ حزبه وشعبه ، ورحل عنا مبكرا ، وشعبه وحزبه بأمس الحاجة اليه !

لحظة ان هاتفني رفيق ، مختنق النبرات ، لم يتمكن من ان يخفي توتره وعبراته ، ونقل لي خبر استشهاد الرفيق سعدون ومرافقيه ، عصر قلبي بقبضة من حجر ، لحظتها ، راودني العديد من الاسئلة المقلقة ! هل كان خطر الموت غائبا عن تفكير الرفيق سعدون ، الذي طالما استهان بالموت في تضاريس حياته النضالية الغنية بالمواقف البطولية ؟ هل كان الرفيق سعدون يفكر بالموت ام ببهاء الحياة الجديدة في عراق جديد ، وهو يتوجه للقاء زوجته ، وابنه الذي يضع اولى خطواته في المدرسة ؟ وهل ... ؟

وتذكرت وصية الرفيق سعدون في الهاتف لرفيق يعيش في المنفى ينوي زيارة اهله في العراق ، ووصيته ان يختار الطريق الاكثر امانا ، فـ " القتلة الان اكثر نشاطا " ! ، اتراه حين توجه لزيارة عائلته لم يرد في باله نشاط القتلة ؟ هل كان في يوم استشهاده قليل الحذر ، وهو الذي عرف بين رفاقه بدهائه وحسه الامني وخبرته المتراكمة ، والقصص البطولية التي سجلها بنفسه ، واثبت فيها براعته في التخفي والعمل السري ، إذ نجا وافلت اكثر من مرة من مخالب وذئاب النظام الديكتاتوري المقبور ، بحيث اثار هستيرية اجهزة النظام المقبور التي رصدت ايامها ، وفي عز سطوتها، الكثير لمحاولة الايقاع به ؟

في ايام العمل الانصاري ، يذكر رفاقه الانصار روحه الاقتحامية وبسالته ، ولذا حين كان بعض من محبيه ، مدفوعين بروح الاعجاب، يروون عنه، اقاصيص تبدو كالاساطير ، كان السامعون يصدقون ما يسمعون ، فلا مجال الا لتصديق الاحاديث عن بطل من طرازه ، تعوّد على الاستهانة بالموت وهو يدرك معنى الحياة الحرة الكريمة !

كثيرا ما حاولت الاجهزة الامنية والمخابراتية للنظام المقبور وعن طريق الخونة ان تنال من الرفيق سعدون ، لكنهم مرارا عضوا اصابع الندم ، اذ كان ورفاقه يتغلبون عليهم، ببراعة التخفي والجرأة في الاقتحام والافلات من شباكهم .

ما الذي حصل الان ومكن فلول النظام وحلفاءهم الارهابيين من المرتزقة المجرمين من الايقاع بواحد من فرسان الحزب الشيوعي العراقي ؟

الاخبار الاولية تقول ان ثمة اربع سيارات تابعت سيارة الشهيد ومرافقيه الابطال ، وبعد مهاجمتهم وقتلهم مثلوا بجثثهم ، فأي حقد مسبق يحمله القتلة في نفوسهم المريضة المجرمة ، لمناضل مثل سعدون ؟

نجح القتلة في النيل منه فقط باتباعهم اسلوب الغدر ، الذي برع فيه المجرمون من عمالقة فاشيين وحلفائهم الظلاميين .

صديق من الولايات المتحدة صرخ بي عبر الهاتف ، وهو اخ لاحد شهداء الحزب الشيوعي : لا تقل لي انه سعدون ذاته الرفيق الذي عمل في تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي السرية ، وكان قائدا ميدانيا من قادة انتفاضة اذار ؟

انه هو ، القائد الشيوعي ، والمناضل الوطني ، والاب المتلهف لمشاركة عائلته واصدقائه ايام العيد والا لم ترصده المجرمون ليحهزوا عليه بكل هذا الحقد ؟

لا نامت عيونكم ولا هنأت لكم حياة ايها الاوباش الجبناء القتلة ، فدماء الشهيد البطل سعدون ، ورفيقيه الباسلين نوزاد توفيق وحسيب مصطفى حسن لن تذهب هدرا ابدا ، وابناء شعبنا ورفاق سعدون سيكونون لكم بالمرصاد . ان دماء الشهداء ستفور غضبا في قلوب رفاقهم الشيوعيين في مواقع العمل ، والخلايا الحزبية التي صارت تمتد في كل بقاع الوطن ، التي أسهم الرفيق سعدون بكل جهده وطاقته في بنائها ورص صفوفها . ان دماء الرفيق سعدون ورفاقه ستلون صباحات رفاقه بشمس الاصرار على العمل المثابر من اجل عراق الوطن الحر والشعب السعيد ، وان ثأر الشيوعيين الحقيقي سيكون في دحر كل مخططات الارهاب الظلامية.

سيظل الخزي والعار من نصيب القتلة الجبناء ، ويظل اسم القائد الشيوعي سعدون راية في ايدي الاجيال القادمة التي ستدحر قوى الارهاب والموت .

ماذا نفعل بإرث إدوارد سعيد؟.

سعد محمد رحيم

أسباب ثلاثة تجعلنا نعير اهتمامنا بإدوارد سعيد ، هي ، أولاً ما تركه من منجز بوأه مكانة مهمة بين رجال الفكر والأدب في القرن العشرين ، وثانياً ؛ موضوعاته التي تناولها وعالجها من منظور منهجي رصين ، ومنها الاستشراق ، والثقافة والمثقف وصوره ، والإمبريالية ، والمسائل المركزية في النقد الأدبي ، وارتباط اسمه بمنظري ما بعد الكولونيالية ، وثالثاً ؛ موقفه من قضايا عصره السياسية والإنسانية الحساسة ومنها القضية الفلسطينية. وتلك أسباب موضوعية يلحق بها سبب آخر ذاتي ، هو ذلك الجزء من هوية إدوارد سعيد المركبة ، الذي يضعه في حالة تطابق أو توافق أو انسجام مع جزء من هويتنا. المركبة أيضاً. لكونه عربياً وفلسطينياً ومولوداً في هذا المكان/ مكاننا. وإن كان هذا لا يكفي كي يدفعنا لنكون مهتمين بسعيد ما لم نشر إلى حقيقة مفادها أن سعيد قد غادرنا إلى هناك/ إلى مكان ((الآخر))، محدثاً اختراقاً عميقاً في الفضاء الثقافي لذلك ((الآخر)).

يقول سعيد: "نشأت كعربي ذي تعليم غربي، وقد شعرت أنني أنتمي لكلا العالمين دون أن أنتمي إلى أي منهما انتماء كاملاً منذ الزمن الذي بمقدور ذاكرتي استعادته... إلا أنني حينما أقول (منفى) فلا أعني شيئاً ما، فعلى النقيض، فإن انتمائي لكل من الجانبين على الخط الإمبريالي الفاصل، كما هو واقع الأمر، قد ساعدني على فهم كليهما بيسر أكثر".

إدوارد سعيد واحد منا، هذا ما نسعى لتأكيده في كل مناسبة. لقد تبنيناه بوصفه هكذا.. واحد منا تمكن من الحضور الفعال ((هناك)) وتأسيس سلطة ذات طابع ثقافي (تمثلنا وتتحدى)، أو هذا ما أردنا أن يكون عليه الحال.. وحصل ((هناك)) على الاعتراف، وافترضنا أن ذلك الاعتراف هو . وإن بصورة ملتبسة . اعتراف بثقافتنا/ بنا.

يعطينا سعيد بعض التعويض النفسي مقابل ذلك الشعور القاهر بالنقص الذي ينتابنا كلما لمسنا أن الآخر لا يهتم لشأننا، ولا يصغي لنا، ولذا عددنا سعيداً ممثلاً لنا . سفيراً ثقافياً وحضارياً بامتياز . يتكلم نيابة عنا. وبقدر ما يولى سعيد من الاهتمام ((هناك)) وبقدر ما يصغى لكلامه، يعترينا الزهو، ونطمئن؛ وأخيراً هذا واحد منا، خرج من بين ظهرانينا، وذهب إلى ((هناك)) وتكلم، فاهتموا بشأنه . بشأننا . وأصغوا لكلامه . كلامنا . بغض النظر عن وضعية سعيد الخاصة في منفاه، وبغض النظر عن فحوى كلامه الذي يتفق معه بعضنا ولا يتفق معه بعضنا الآخر.

كان إدوارد سعيد في المكان الآخر/ مكان الآخر/ خارج مكانه هو. غير أن عنوان كتابه (خارج المكان) لا يوحي باللامكان، بل على العكس، فهو يؤكد وجود المكان/ مكان الطفولة والذاكرة والحلم. وكان دقيقاً وذكياً حين اختار هذا العنوان لكتابه الذي يؤرخ لسيرته في مرحلة حياته الأولى. فهو في كتاب (خارج المكان) لم يكتب عن خارج الـ ((مكان)) بل عن المكان ذاته/ مكانه هو/ ولكن من الخارج، وكان يرمي إلى تعزيز فكرة وجود المكان كياناً جغرافياً وتاريخياً وسياسياً ونفسياً في مقابل فكرة إنه الآن خارج ذلك المكان الذي هو له. من هنا شكل هذا الكتاب مصدر رعب للمؤسسة الصهيونية، وهدفاً للذم والقدح ومحاولة النيل من مصداقيته.

غادر إدوارد سعيد مكانه من دون أن يقطع صلته به، ولم يتنصل عن جزء ، أو ذلك الأصل من هويته المركبة الذي يتجذر ((هنا)). إنه في آن واحد ((هنا)) و ((هناك)).. يقول: "إنني قد عبرت الخط الفاصل بين الشرق والغرب، وولجت إلى حياة الغرب، إلا أنني احتفظت بصلة عضوية مع مكان نشأتي، وكانت هذه عملية عبور أكثر منها عملية إبقاء على الحواجز". وبمعنى ما لم يكن سعيد ليجد ضيراً من تحطيم ذلك الجدار الفاصل المصنوع بحسب موجهات سياسية/ إيديولوجية، وقد رأى في مفهومي (الشرق) و(الغرب) التباساً بعدهما مصنوعين ومماسسين لا على وفق تخريجات الطبيعة والتاريخ، بل إملاء لغايات قفزت من فوق اعتبارات الطبيعة والتاريخ.

كان إدوارد سعيد بهذا مفكراً عالمياً، و (خارج المكان) الذي قال به في كتابته لسيرته الشهيرة التي نوهنا عنها آنفاً يكاد يكون ((المكان كله))، من خلال ردم ما بين الداخل والخارج، الشرق والغرب، الأنا والآخر، الحدود النفسية والحدود التي خلقتها الإيديولوجيات والمصالح، وقرون من الأخطاء وسوء الفهم. إنه عالمي من وجهة النظر المكانية، و((كلي)) في خوضه بين حقول معرفية شتى، اكتشف شبكة التنافذ التي تصل أحدها بالآخر، وكان دائم البحث في العلاقات، العلاقات المسؤولة عن التشكلات بأنماطها السياسية والاجتماعية والمعرفية، وعن التحولات التي تحدث نتيجة التبدلات الحاصلة في العلاقات. و سعيد من الذين نبذوا فكرة الاقتصار على التخصص الدقيق ليخرج من السياج الأكاديمي الضيق إلى امتدادات الثقافة التي لا تحد، فضلاً عن سعة نطاق مرجعياته وأدواته المفهومية وقوة منهجه الذي يمتح من مصادر عديدة.

إن منجز إدوارد سعيد جزء من رصيدنا الثقافي والمعرفي، فهو، من جانب ذلك المثقف العضوي الذي يمثل مؤسسة وقضية وإيديولوجيا، بمعنى ما، وهو من جانب آخر واحد من القلة من الفلاسفة/ الملوك. بحسب جوليان بندا . الذي يجسد ضمير الإنسانية، وهو أيضاً . بحسب تحديده . ذلك المثقف المستقل المنفي والهاوي الذي يقول الحق للسلطة، وله موقف من قضايا عصره. وقد ترك سعيد إرثاً واسعاً، وإذا عرفنا أنه ليس من حق أحد احتكار هذا الإرث لأنه ملك كل إنسان فإننا، كتحصيل حاصل، من مالكي هذا الإرث الشرعيين إنه إرث مطروح وموجود ومبذول في متناول اليد يجعلنا مرغمين أمام السؤال عن ما الذي يمكننا أن نفعله به/ بهذا الإرث؟.

نحن بحاجة إلى إدوارد سعيد، إلى إرثه وتركته، وهما ليسا أي إرث وأية تركة غير أن إدوارد سعيد نفسه بحاجة إلينا لنأخذ إرثه على عاتقنا، ووصيته المضمرة هي أن نقرأ منجزه/ إرثه ونعيد قراءته بعقل متفتح وناقد، ونجترح له آفاقاً لم تكن مطروقة.

لكن، ومرة أخرى، من يقرأ إدوارد سعيد؟.

لابد أن نضيف على هذا السؤال كلمة (هنا)، لأن ذلك هو ما يعنينا في هذا المقام أكثر من أي شيء آخر. فعلى الرغم من أهمية السؤال (من يقرأ إدوارد سعيد "هناك"؟. يبقى أن نؤكد أننا الآن/هنا يعنينا، في المقام الأول، إشكاليات ثقافتنا وفضائنا الثقافي. ومدى قراءة إدوارد سعيد مؤشر على درجة فاعلية هذا الفضاء، وبدء الإجابة عن السؤال: ماذا نفعل بإرث إدوارد سعيد؟.

يتموضع سعيد في سياق مركب مرجعاً ومنجزاً وشخصية وهوية. ولأن مثل إدوارد سعيد لا يمكن تجاهله فإنه أضحى هدفاً لانتقادات وتهجمات واتهامات شتى بصفته ناقداً أدبياً، وبصفته مفكراً له آراؤه في قضايا عصره، وبصفته داعية لاستعادة حقوق المضطهدين، ولا سيما في موطن مولده فلسطين. يقول سعيد عن طبيعة التعليقات التي قيلت حول كتبه؛ كثير منها إيجابي، إلا أن قدراً منها، لا بأس به عدائي، وفي بعض الحالات بذيء.

واسم إدوارد سعيد يحمل مفارقته الخاصة بعده مكوناً من مقطعين: إدوارد وهو ذو ثقل إنكليزي ورنين غربي، وسعيد وهو اسم عربي/ شرقي وقد حدثنا عما كان يسببه له اسمه الأول (إدوارد) من إحراج في بواكير حياته بين أقرانه في المدرسة حين كان مع عائلته في مصر. واسم (إدوارد سعيد) يحيل دفعة واحدة إلى جملة من الأشياء انتماؤه وهويته/ فلسطيني، عربي مسيحي، أمريكي)، وتجربته في الاقتلاع والنفي خطابه الإيديولوجي وموقفه السياسي من قضايا العالم المختلفة وضعه مثقفاً كلياً يتحكم بمرونة وحذاقة، ومن دون أن يفقد صرامته الأكاديمية بحقول واسعة متداخلة ومتنافرة، إذ كان يجد دائماً العلاقة المناسبة، أو يخلق الهارموني الضروري بينها جميعاً ولأمثال هذا الرجل، لا شك، يكون مريدون كثر وخصوم كثر. فإدوارد سعيد يثير بحكم تعقد وتشعب عمله حفيظة أناس مختلفين يقفون في مواقع ومدارات متباينة، فكتاباته التي تتجاوز، في الغالب، الأهواء، تنفذ نخاع الواقع وتصدم قناعات أولئك الذين يرون الواقع مثلما يريدونه، أو يسوغونه، لا مثلما هو في سياقه التاريخي.

عند جيل سابق، كان إرث ماركس عامل تنشيط لفضائنا الثقافي، وكذا الحال مع إرث مفكري عصر الأنوار الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفعل الشيء نفسه، في ما بعد، إرث سارتر فوكو وآخرين كثر غيرهم.

إرث سعيد، كما إرث ماركس سارتر فوكو لحظة متوهجة في مسار تاريخ الفكر الإنساني، لحظة تستعاد وتتعشق مع لحظات الآخرين المتوهجة، لحظات هي تعبير عن مجد عقل الإنسان في ارتقائه وإحباطاته. ويظل هذا الإرث لا طائل من ورائه ولا معنى له ما لم يخضع للقراءة النقدية الفاحصة.

رحل إدوارد سعيد قبل أكثر من سنة، والمسائل الفكرية التي أثارها لا تزال تحتفظ بأهميتها وحرارتها، وستبقى، حتى وقت طويل، كذلك. فموضوعاته ذات الطابع الإشكالي لا تزال في القلب من اشتغال مفكري العالم.. إن أحد الأسباب التي تفرض قراءة سعيد هو أن ما كتبه ليس من السهل تجاهله. إنه يواجهك، سواء أردت أم لم ترد، وسواء اتفقت معه أم اختلفت، فهو من أولئك الذين يقولون شيئاً مختلفاً وغير متوقع في لحظة غير متوقعة، وهو من القلة الذين يجعلونك تقف لبرهة لتفكر معيداً النظر في حساباتك الراسخة، فإدوارد كان مقلقاً وصادماً في الفضاء الفكري الذي عاش فيه.

نجح سعيد في أن يحدث ما يثير الانتباه في حقول ومستويات مختلفة، أدبية وسياسية ومعرفية، وما كان على نقاد الأدب أن يتجاوزوه، فهو الذي كتب (العالم/ النص/ الناقد) وما تلاه من مؤلفات أكدت ألمعيته في مجال النقد الأدبي المقارن. وكان على المستشرقين والمهتمين بشؤون الشرق أن يهتموا بكتابه (الاستشراق) الذي وضع تاريخ الاستشراق كله موضع التساؤل. وكذا الأمر مع كتبه الأخرى المعرفية والسياسية التي تناقش أدق تفاصيل الأحداث الملتهبة في العالم، ولم يرض لنفسه أن يمكث أسير جدران مكتبه وقاعة محاضراته في الجامعة، بل خرج من هناك لينخرط في مجال السياسة ويدلي برأيه الشاقب في مسائلها الشائكة.

يقول من جانب، هناك حياة المفكر والناقد الأدبي والمدرس. فإنني أحيا حياة غير خلافية في جامعة كبيرة... بيد أنني أحيا حياة أخرى لا تعرف عنها غالبية من ينتسبون إلى الحياة الأدبية شيئاً، وهي خلفيتي الكاملة في الشرق الأوسط، وزياراتي التي تطول أحياناً، ومشاركاتي السياسية، وهذا يوجد في صندوق يختلف تماماً عن ذلك الذي أقفز منه كناقد وأستاذ جامعي.

من الممكن استثمار منجز سعيد لدعم ثقافتنا، غير أن هذا احتمال إلى جانب احتمال آخر هو أن منجز سعيد من الممكن أيضاً أن يضللنا ويوهمنا ويعطينا صورة زائفة عن أنفسنا وثقافتنا، وما نستطيع أن نفعل، أو تستطيع هذه الثقافة أن تفعل، فمنجز سعيد ينتمي إلى ثقافتنا ولا ينتمي في الوقت عينه، ينتمي بحكم ولادته (سعيد) ونشأته . هنا ، من صلبنا، وبين مرابعنا، قبل أن يغادر، ولا ينتمي لأنه أخرج منجزه وأبدعه (هناك) في ضوء مناهج فكر الغرب وتقاليد ثقافته وبلغته وبالتعاطي مع إشكالياته. وحتى كتابه الأهم (الاستشراق) كتبه للقارئ الغربي باعترافه هو. فليس من المنطقي أن نحسب فكر إدوارد سعيد على الفكر النهضوي والحداثي العربي، ولا يمكننا القول أنه ينتمي إلى هذا الفكر مثلما ينتمي إليه فكر الطهطاوي ومحمد عبده والكواكبي وطه حسين وعلي عبدالرازق وسلامة موسى وغالي شكري وصادق جلال العظم وأدونيس ومحمد عابد الجابري وجورج طرابيشي.

بعض من هؤلاء غادروا إلى الغرب أيضاً، غير أنهم عادوا واشتغلوا على الرغم من اختلافاتهم في إطار مقتضيات الفضاء الفكري والثقافي العربي، على العكس من إدوارد سعيد الذي بقي يشتغل في إطار تقاليد الفكر الغربي، فمرجعية سعيد غربية إلى حد بعيد، فهو سليل التقاليد الفكرية التي أنجبت فوكو وديريدا وهابرماس وأدورنو وتشومسكي وغيرهم وليس سليل التقاليد التي أنجبت مفكرينا على الرغم من مصادر هؤلاء الغربية. وكذلك يختلف إدوارد عن مفكر آخر غادر إلى الغرب (فرنسا) وكتب باللغة الفرنسية على وفق المناهج الفكرية الغربية، وهو محمد أركون، فأركون اختار موضوعة واحدة محددة هي كيفية النظر المنهجي العقلي والنقدي للتراث الفكري الإسلامي تحديداً.إرث سعيد ليس فقط كتبه التي تركها لنا مع بقية كتاباته، بل تضاف إلى ذلك مواقفه والمحطات المهمة في حياته. فحياة سعيد تتواشج مع فكره ونصوصه، وفكره ونصوصه هما عصارة تجربته، ومن خلال فكره نتبين كيف عاش في هذا العالم، وكيف خاض التجربة وكيف رأى. ومع فكر سعيد ونصوصه لا نستطيع أن نقتل المؤلف كما أوصانا رولان بارت وجمهرة البنيويين.. إن المؤلف يحضر، لا بد، مع فكره، ومفاتيح هذا الفكر، أو بعضها المهم في الأقل، من المستحيل امتلاكها ما لم نعرف إدوارد سعيد في سياق تجربته، فسعيد الذي قرأ العالم، ليس مع استبعاد التاريخي والسياسي، أعطانا إمكانية أن نذهب إلى أبعد مما ذهب هو. وان نقرأ، من وحي قراءته وتجربته، ونعيد قراءة تجربتنا ورؤيتنا إلى أنفسنا وإلى العالم.

جديد

فلسطين في الأرشيف السري للكومنترن

ابراهيم حاج عبدي

يأتي كتاب (فلسطين في الأرشيف السري للكومنترن) الذي صدر أخيرا عن دار المدى بدمشق، قدم له وجمع مادته التوثيقية الباحث والأكاديمي الفلسطيني ماهر الشريف في إطار اهتمام الأخير بتاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين، استكمالاً للجهود التي بذلها في هذا المجال . إلى جانب الشريف . عدد من الباحثين مثل موسى البديري، وسليمان بشير، وماريو اوفينبورغ، والكسندر غريلسامر وسواهم ممن اهتموا بالبحث في تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني وارتباطه بالكومنترن (الأممية الشيوعية) التي أسست في عام ١٩١٩ وحلت في عام ١٩٤٣ ،غير ان النتائج العلمية التي تم التوصل إليها بفضل هذا الجهد الجماعي، ظلت بحاجة إلى تزكية مرهونة، كما يقول الشريف، بتوفر فرصة الاطلاع على الأرشيف السري للكومنترن خصوصا ما يتعلق منه بفلسطين، كون ان هذا الأرشيف يعد المرجع العلمي الأهم لدراسة تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني، وتاريخ مجمل الأحزاب الشيوعية في الفترة التي كان فيها الكومنترن هو المرجع الرئيس لهذه الأحزاب.

الكومنترن (الأممية الشيوعية):

انعقد المؤتمر التأسيسي للكومنترن في موسكو، بين ٢ - ٦ آذار ١٩١٩، بمشاركة ممثلين عن ٣٥ حزباً ومنظمة شيوعية، وانتخب أول لجنة تنفيذية لقيادة نشاطه.. وفي المؤتمر العالمي الثاني الذي عقد في العام التالي، تم تبني النظام الداخلي للكومنترن، الذي أكد ضرورة أن يتبنى كل حزب يود الانتساب إلى الكومنترن اسم: "الحزب الشيوعي في ... فرع الكومنترن"، وأقر هذا المؤتمر الشروط الواحدة والعشرين للانتساب إلى الكومنترن، ومنها أن يخضع برنامج كل فرع إلى مصادقة المؤتمر العالمي أو اللجنة التنفيذية، وأن يكون النشاط التحريضي لكل فرع ودعايته متوافقين مع برنامج الكومنترن ومقررات لجنته التنفيذية، وأن يقوم البناء التنظيمي لكل فرع على قاعدة المركزية الديمقراطية وأن يلتزم كل فرع بتنفيذ مقررات المؤتمر العالمي واللجنة التنفيذية للكومنترن.

وفي حين احتلت المسألة التنظيمية موقعا مهما في مداولات المؤتمر العالمي الثالث للكومنترن العام ١٩٢١ فانه جرى في المؤتمر العالمي الرابع، الذي انعقد في موسكو ١٩٢٢ تأكيد ضرورة تحويل الكومنترن إلى حزب شيوعي عالمي، وأهمية التزام كل فروعه بانضباط صارم في تنفيذ مقررات مؤتمراته العالمية ولجنته التنفيذية، وتم، في هذا السياق، انتخاب لجنة أممية للرقابة. وبعد المؤتمر العالمي الخامس، الذي انعقد في موسكو ١٩٢٤، صار الاجتماع الموسع للجنة التنفيذية يحل، عملياً، محل المؤتمر العالمي، ويؤدي الدور الرئيس في حياة الكومنترن ونشاطه.

وجاء المؤتمر العالمي السادس، ١٩٢٨ ليكرس سيطرة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، بزعامة ستالين، على مركز القرار في اللجنة التنفيذية للكومنترن، وليضيق، إلى أقصى الحدود، هامش المبادرة الذي كانت تتمتع به الفروع المحلية في البلدان المختلفة.

ولكن، ومنذ عام ١٩٣٢، بدأت تبرز في الاجتماعات الموسعة للجنة التنفيذية آراء تحذر من خطورة النقل الميكانيكي لتجربة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، وتدعو إلى توسيع استقلالية الفروع المحلية للكومنترن، وهو الأمر الذي تم تثبيته في المؤتمر العالمي السابع، الذي انعقد في موسكو ١٩٣٥ ، في ظروف دولية مستجدة تميزت في الأساس بوصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا.

وكان جورجي ديمتروف، وغيره من قادة الكومنترن، قد أكدوا، خلال حملة التحضير لهذا المؤتمر، ضرورة تغيير أساليب العمل والقيادة في إطار الكومنترن، ولا سيما بعد أن ضعفت إمكانية قيادة الحركة الشيوعية العالمية من مركز واحد. وبالفعل، فقد دعا المؤتمر العالمي السابع، في توصياته، اللجنة التنفيذية الجديدة إلى تركيز نشاطها، في المستقبل، على صياغة توجيهات سياسية عامة، والعمل على مراعاة "الظروف والخصائص الملموسة في كل بلد من البلدان"، والامتناع عن التدخل المباشر في الشؤون التنظيمية الداخلية للفروع، التي يتوجب عليها "الاعتماد على إمكاناتها الذاتية وتحديد سياساتها بنفسها".

وانتخب المؤتمر العالمي السابع لجنة تنفيذية مكونة من ٤٦ عضواً، ضمت، أول مرة، ممثلاً عن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، هو محمود الأطرش (المغربي)، وفي أعقاب اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومن ثم قيام قوات ألمانيا النازية بالهجوم على الاتحاد السوفيتي، طُرحت، بصورة جدية، قضية حل الكومنترن، وتقدمت هيئة رئاسة لجنته التنفيذية، بالفعل، بمقترح بهذا الشأن في ١٥ أيار ١٩٤٣، حرر الفروع المحلية من كل التزاماتها النابعة من النظام الداخلي للكومنترن ومقررات مؤتمراته ولجنته التنفيذية، وتمّت المصادقة عليه، رسمياً، في ٩ حزيران من العام نفسه.

ويتحدث الشريف في مقدمته عن كيفية وطبيعة الصلات التي جرت بين الكومنترن والحزب الشيوعي الفلسطيني الذي أصبحت مسألة الاعتراف به بوصفه فرعاً للكومنترن في فلسطين، مطروحة على جدول أعمال اللجنة التنفيذية للكومنترن، التي كلفت سكرتاريتها، في ٢٠ آب ١٩٢٣، بمناقشة تقرير عن أوضاعه وبالاستفسار من القسم الشرقي عن طبيعة العلاقات التي أقيمت معه.

ويتبيّن من إحدى الوثائق، أن اللجنة التنفيذية انتدبت، في أيلول ١٩٢٣، أحد قادة الحزب الشيوعي النمساوي لتمثيلها في المؤتمر الذي كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يزمع عقده. وفي شباط ١٩٢٤، شكّلت اللجنة التنفيذية للكومنترن لجنة خاصة لبحث مسألة الاعتراف بالحزب، صدر عنها في العام نفسه، قرار اعتبر أن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد استوفى كل شروط الانضمام، وبات فرعاً رسمياً للكومنترن في فلسطين.

لقد كانت علاقات الحزب بقيادة الكومنترن تتم من خلال هيئات عديدة، من أهمها القسم الشرقي التابع للجنة التنفيذية، أو السكرتارية الشرقية، والسكرتارية السياسية للجنة التنفيذية، ومكتب التنظيم التابع للجنة التنفيذية، إضافة إلى هيئة الرقابة الأممية. وفي المرحلة الأولى، التي أعقبت الحصول على الاعتراف الرسمي، كانت صلة الحزب المباشرة تتم من خلال بتروف، سكرتير اللجنة التنفيذية للكومنترن، وكيتايغورودسكي وفاسيليف، من القسم الشرقي، وبياتنسكي، أحد مسؤولي هيئة الرقابة الأممية. وفي حالات نادرة، كان يتم اللجوء إلى بعض قادة الكومنترن البارزين، مثل زينوفييف أو بوخارين، وكوسنين أو مانويلسكي، في مرحلة لاحقة، وذلك، لطلب مشورتهم قبل اتخاذ موقف من مسائل معينة تتعلق بنشاط الحزب أو بأوضاعه الداخلية.وإضافة إلى الرسائل التي كانت توجهها إلى قادة الحزب، والاجتماعات التي كانت تعقدها معهم في موسكو، كانت قيادة الكومنترن توفد، بين الحين والآخر، بعض ممثليها إلى فلسطين، للتعرف على الأوضاع عن كثب. ففي عام ١٩٢٦، أوفدت قيادة الكومنترن ممثلاً عنها، يحمل اسم أرنست، إلى فلسطين، للتعرف على أوضاع الثورة السورية والالتقاء ببعض زعمائها. وفي عام ١٩٢٨، أرسلت موفداً جديداً، يحمل اسم ماكس، إلى فلسطين، للمساهمة في إيجاد حل لمسألة "المعارضة" التي برزت داخل الحزب. وفي عام ١٩٣١، كلفت قيادة الكومنترن أحد قادة الحزب الشيوعي السوري، ويدعى حسان، (فؤاد الشمالي، على الأرجح، أحد أعضاء النواة الأولى للحزب الشيوعي السوري، وسكرتيره العام، في النصف الثاني من العشرينيات، ومندوبه إلى المؤتمر العالمي السادس للكومنترن) بالسفر إلى فلسطين للمشاركة في قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. كما أوفدت، في نهاية العام نفسه، ممثلاً عنها، يدعى فريد (أو إيغيل)، للإشراف المباشر على عمل قيادة الحزب، ثم أوفدت، في مطلع العام ١٩٣٣، ممثلاً جديداً، للغرض نفسه، باسم سيل أو ر. غ . ويبدو أن آخر موفدي قيادة الكومنترن إلى فلسطين، كان روزنبرغ، في عام ١٩٤٣،ما الجديد في وثائق أرشيف الكومنترن؟:

بعد جهود حثيثة بذلها الباحث ماهر الشريف استطاع أخيرا وفي نهاية عام ١٩٨٩ ان يطلع على الأرشيف السري الخاص بفلسطين لدى الكومنترن بعدما صار الاطلاع عليه ممكنا اثر صدور قرار في عام ١٩٨٨ عن اللجنة المركزية سمح بوضع أرشيف الأحزاب الشيوعية التي كانت فروعا للكومنترن في متناول أيدي الباحثين المعنيين، وهو ما أتاح للشريف البحث في كل ما يتعلق بفلسطين خلال شهرين متواصلين، فتبين له ان بعض الوثائق تحمل طابع السرية وبعضها الآخر أقل أهمية، كما ان بعض الوثائق التي عثر عليها لا يمكن ان تحمل طابع السرية كونها نشرت في الدوريات والصحف التي كانت تصدر آنذاك أو جاءت على شكل نداءات وبيانات علنية في حينه الأمر الذي دفعه إلى عدم إدراجها في الكتاب.ولكن ما الجديد الذي تقدمه الوثائق التي صنفها الباحث في الكتاب بحسب تاريخها، التي تتصف بالسرية؟ يقول الشريف: قبل الإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب ليس كتاباً في تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين، بعلاقتها بالكومنترن، وإنما هو كتاب وثائقي، قد يساعد الباحث المعني بالموضوع على إغناء معارفه، شرط رجوعه إلى أبرز الكتب التاريخية التي تطرقت إلى هذا الموضوع. كما أن المعلومات التي تتضمنها الوثائق، المنشورة في هذا الكتاب، تزكي، إلى حد كبير . حسب اعتقاد الباحث . الاستخلاصات العلمية التي تم التوصل إليها، سابقاً، ولا تفرض إجراء مراجعة شاملة لها، وإنما تفتح الباب أمام تعميق هذه الاستخلاصات وإغنائها، وتساهم في إضاءة بعض النقاط المعتمة التي بقيت ماثلة في عمارة البحث الخاص بهذا الموضوع.

وتأسيسا على ذلك فان وثائق هذا الأرشيف . كما يقول الباحث . تقدم معلومات تغني، إلى حد ما، ما هو معروف عن المساعي التي قامت بها، منذ عام ١٩٢٠، المجموعات الثورية اليهودية المختلفة التي ظهرت في فلسطين، وكانت مرتبطة بالاتحاد العالمي "اليساري" بوعالي تسيون، من أجل الحصول على اعتراف الكومنترن، وعن حيثيات الانقسامات التي وقعت في صفوف هذه المجموعات، وعن ظروف عملية التوحيد التي أفضت، في تموز ١٩٢٣، إلى تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني، وعن الجهود التي بذلها هذا الحزب من أجل الانضمام إلى الكومنترن. كما تسلط وثائق الأرشيف أضواء جديدة على التطور الذي شهده هذا الحزب، بعد حصوله على اعتراف الكومنترن، وعلى التوسع في حجم عضويته، وعلى التوزع الاجتماعي والمهني لأعضائه، وعلى دوره في إطار الحركة العمالية النقابية، وعلى الصعوبات التي واجهها، بخاصة على مستوى اللغة، في سعيه إلى ضم العمال العرب إلى صفوفه، وعلى الاحتكاكات التي كانت تقع بين الشيوعيين العرب واليهود، وعلى اتصالات الحزب المبكرة مع الحركة الوطنية العربية.كما تغني وثائق الأرشيف المعلومات المعروفة عن أوضاع الحزب الشيوعي الفلسطيني عشية اندلاع "هبة البراق" في آب ١٩٢٩، وعن معارضة غالبية أعضائه اليهود تقويم قيادة الكومنترن لها بوصفها انتفاضة ثورية معادية للإمبريالية.وتساهم وثائق الأرشيف في تعميق المعلومات عن النقاشات الداخلية التي دارت في صفوف الحزب بشأن الموقف من حزب الاستقلال، وبشأن تقويم طبيعته، وعن العلاقات التي نسجتها قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني مع المجموعة التي كان يتزعمها حمدي الحسيني. كما تساهم في إغناء المعلومات عن دور الحزب في التصدي لحملات "احتلال العمل" و "احتلال الأرض" الصهيونية، وعن إسهامه في أحداث ثورة عام ١٩٣٦، وعن المشكلات الداخلية التي نجمت عن الخط السياسي الذي تبنته قيادة الحزب خلال هذه الأحداث، والتي أفضت إلى وقوع الانقسام القومي داخل صفوفه.

كما يغني الأرشيف الخاص بفلسطين الأبحاث التي أنجزها عدد من الباحثين، عن تاريخ الحركة الشيوعية في مصر، حيث تتضمن وثائقه كماً من المعلومات عن طبيعة العلاقات التي قامت بين الحزبين الشيوعيين الفلسطيني والمصري، منذ أن أعربت الثوريون اليهود، في حزب العمال الاشتراكي، في عام ١٩٢٠ عن رغبتهم في إقامة صلات مع مصر، مروراً بالمهمات التي اضطلع بها بعض قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في مصر، ودورهم في مساعدة الشيوعيين المصريين على تجاوز الأوضاع الصعبة التي واجهوها إثر حملة الملاحقات القاسية التي استهدفتهم في عام ١٩٢٤، ومقترحهم الداعي إلى توحيد الحزبين في فلسطين ومصر وإقامة جهاز حزبي موحد يشرف على نشاطهما، وانتهاء بقيامهم بإصدار النظام الداخلي للأحزاب الشيوعية الثلاثة في مصر وسورية وفلسطين، في نهاية عام ١٩٣٠،كما تساهم وثائق الأرشيف في إغناء المعلومات عن حيثيات تأسيس النواة الأولى للحزب الشيوعي في سورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٤، بخاصة تلك التي أوردها محمد دكروب في كتاب